

النقد الجينيولوجي للتراث عند نيتشه بين ترحيب المفكرين العرب ورفضهم

جمال مفرج (*)

إن نيتشه هو أكثر الفلاسفة تأثيراً في عصرنا ، فإن قليلين هم الذين بلغوا مكانة وتأثيراً يمكن مقارنتهما بما بلغه . وليس هناك فيلسوف اكتسب هذه السمعة ، ومارس هذا التأثير في الثقافة المعاصرة .

ومما لا شك فيه أن العنصر الرئيسي الذي يفسر ما يلقاه عمله وشخصه من اهتمام متصل حتى الوقت الراهن يعود إلى أن الناس يرون فيه «السائل الكبير» الذي عرفه كيف «يخمن» القضايا الخاصة التي ينهك الفكر الغربي نفسه في حلها في أيامنا الحاضرة، وبالفعل ، فقد كان نيتشه يفخر دائماً بأنه يتحدث للمستقبل ، وبأن أفكاره لن تفهم إلا بعد مائة عام ، وكان يعتقد أن مكانته الفلسفية مستقلة كل الاستقلال؛ على الرغم من شعور بأنه وريث آلاف السنين . وقد كان يعترف دائماً بأنه «في غير آوانه» كما تقول «الاعتبارات» ، وبأنه متقدم على عصره، وكان يعيش بهذه الفكرة الدائمة الملازمة له وهي أن عمله لن يفهم إلا ابتداء من القرن العشرين وهو ما يشير إليه في كتابه «العلم المرح» حيث يقول: «نحن أطفال المستقبل ، فكيف يمكننا أن نكون في منزلنا، في مثل هذا الوقت الحاضر»^(١) .

إن نيتشه ولم يكن حاملاً وصاحب رؤى وناسج أساطير فقط ، بل كان بالإضافة إلى ذلك ناقداً ومتسائلاً وهداماً كبيراً . لقد بدا وجه من أوجه تفكيره خيالياً تنبئاً ، وبدا وجه آخر منه انتقادياً شديداً . وهكذا فلقد كان واحداً من أولئك الذين رفضوا الانخداع ، وأعطانا ، كناقذ تشخيصاً وتحليلاً لثقافة الإنسانية من أشد ما عرفه عصرنا

(*) قسم الفلسفة - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة منتوري بقسنطينة .

قسوة وبعدا عن الشفقة . ولذلك لم يكتسب الرضا والعطف من طرف معاصريه، ولم يستهو أحداً من احتك بهم احتكاكاً مباشراً. لقد كانت طباعه القوية، وتفكيره المستقل ، سبباً في سخط الناس عليه وإحجامهم عن إيلائه المودة والحب فقد راح يناظر الفلاسفة ، ويجادل أهل الديانات، ويسفه أحلام كثير من العلماء ويتعرض بما يؤذى ويشين لرجال يعتبرون من السلف الصالح في نظر العامة والخاصة على السواء .

فتحن إذن من نيتشه أمام رجل يحتل في تاريخ الفكر الغربي الحديث مرتبة مثيرة ومحيرة جداً: مثيرة لأنه تحدى كل الأفكار والمعتقدات والقيم التقليدية في عصره، ومحيرة لأن نتاجه، الذي هو شديد الإثارة، أضحى فجأة ، وبعد إهمال طويل استمر طيلة حياته، زيا تحول إلى شيء من الشعار العقائدي في أوروبا كلها .

هذا، وكما أيقظ نيتشه ، بعد موته، اهتمام المفكرين الغربيين فإنه أيقظ لدى المفكرين العرب اهتماماً خاصاً جداً. فمنهم من حرك فيه عوامل البغض العميق، ومنهم من ملأ قلبه بالإعجاب والتمجيد. وتوجه نحوه مؤلفون مشاهير عديدون: فرح انطوان، وسلامة موسى، وعبدالرحمن بدوي، وفؤاد زكريا، وهشام شرابي وغيرهم. وأثر نيتشه في الحياة الفكرية للعرب، حتى أنه يمكننا أن نقول أنه فاق في هذا التأثير بقية الفلاسفة الآخرين كأرسطو وأفلاطون وديكارت وليبنيز وسبينوزا وكانط وهيغل .

ولقد توجه المفكرون العرب نحو نيتشه مسترشدين إما باعتبارات نظرية خالصة وإما باعتبارات ذرائعية. إن البعض يرون في أفكاره «وسيلة لإصلاح العالم العربي المتخبط في التقاليد البالية»، والبعض الثاني يرون فيها «وسيلة تفتح أمام الفرد آفاقاً واسعة في مجال القوة والثقة بالنفس وتحرير الحياة من المسكنة والذل»، و«التغلب على ما ورثته الأجيال من عقائد موهنة للعزم» والبعض الثالث يرون فيها «دعوة للبحث عن حقيقة غير محدودة» ، وينبغي القول أن الذين اتجهوا إلى نيتشه باعتبارات ذرائعية هم الغالبية، وخصوصاً مفكري «النهضة» أو «التنوير» .

لكن هذا التأثير للنيتشوية لم يكن مطلقاً ، فقد عارض بعض المفكرين العرب ، من اهتموا بدراسة نيتشه ، بصورة صريحة لبعض مصادراتها وأعرضوا عن الإقرار بما يترتب عليها من النتائج الإيديولوجية والدينية الملحدة . بل إن الذين رحبوا بنيتشه ترحيباً واسعاً ، انضموا إلى هؤلاء الرافضين في الإعراض عن بعض المسائل التي تعالجها النيتشوية . ولقد كان عدم الاهتمام بالمنهج الجينيالوجي الذي وضعه نيتشه هو أكبر دليل على ذلك . فقد رفض المفكرون العرب اللجوء إلى هذا المنهج الذي يضع موضع النقد كل المسائل التي يعالجها ، ويضع الدين موضع السؤال ، والذي كان «موت الإله» و «نهاية الميتافيزيقا» و «انهيار القيم» و «القضاء على الأخلاق» من النتائج المترتبة على تطبيقه ، إذ لا توجد دراسة عربية واحدة اهتمت بالمنهج الجينيالوجي ونقله إلى الثقافة العربية ، ومن ثم تطبيقه ، مثل بقية المناهج الحديثة ، في العلوم التراثية العربية والإسلامية . فلماذا هذا الحذر من المنهج الجينيالوجي ؟

قبل أن نجيب على هذا السؤال يتوجب علينا ، أن نعرف بهذا المنهج الذي تجاهله المثقفون العرب .

إن موضوع المنهج الجينيالوجي هو البحث عن الأصل ، فهو أساساً منهج تاريخي . وهو منهج يقترن ، من جهة ، بالفيلولوجيا أو فقه اللغة لأنه ينظر إلى الظاهرة التي يدرسها كنص يجب التعرف عليه ، أى يطرح مشكلة معنى الظاهرة ، ويقترن ، من جهة أخرى ، بالجينيالوجيا التي تطرح قيمة المعنى ، من خلال البحث عن أصل الظاهرة .

وهكذا فإن أول ما يتوصل إليه نيتشه باستعمال المنهج الجينيالوجي باعتباره فقهاً للغة أو فيلولوجيا هو أن الوجود ليس واقعاً خاماً بل هو سلسلة تأويلات وكذلك الظواهر والأشياء وكل فعل للقوة . لذا فإن قيمة الأشياء متوقفة على المعنى الذي نعطيه إياها . ومن هنا فإن تاريخ ظاهرة ما يصبح هو تاريخ التأويلات المختلفة التي تتعاقب عليها ، أو هو تاريخ تعدد المعاني^(٢) . فما من حدث ، أو ظاهرة ، أو كلمة أو فكرة إلا وله معانٍ مختلفة . فهذا الشيء هو كذا حيناً ، وكذا أحياناً ، أو له من المعاني

بقدر ما توجد قوى قادرة على الاستيلاء عليه . ولذلك كان نيتشه يقول - مثلاً - إن حدث «موت الإله» هو حدث ذو معنى متعدد، وأنه ليس للدين معنى واحد، لأنه يخدم قوى متعددة . ومن هنا جاء النظر إلى الظواهر على أنها لغة؛ فهي لا تعبر عن شيء ، وإنما هي تدل وتعنى . ولذا يؤكد نيتشه أن ما يهمنا هو معرفة الكيفية التي تسمى بها الأشياء لا معرفة ماهيتها^(٣) .

هذا، وتعدد معانى كل حدث هو تعدد يظل صامتاً لنا، لأن المعنى الذى ندرکه والذى يتجلى لنا مباشرة قد لا يكون، فى الحقيقة، إلا معنى أضعف يخفى معنى آخر ويُغلفه . وهذا يعنى أن اللغة تُؤلّد الاعتقاد بأنها تتجاوز صورتها اللفظية الصرف، أو أن هناك أشياء أخرى تتكلم دون أن تكون لغة، كغريزة السيطرة التي تتخفى وراء الكلمات العديدة^(٤) . وهذا يعنى أن ثقافة الإنسان اللغوية سيئة، وأن اللغة خائنة، لأنها تصور لنا عالماً من الأشياء يخفى عنا العالم الحقيقى . يقول نيتشه فى هذا المعنى: «إن عبارة سيادة القوانين فى الطبيعة» القائلة بأن «كل شيء يحدث كما لو أن . . .» والتي تتحدثون عنها بكل هذا الفخر، يا علماء الفيزياء ، لا وجود لها إلا بفضل تفسيركم وسوء ثقافتكم «اللغوية» فهي ليست أمراً واقعاً . . بل هي تكيف بشرى ساذج، وتشويه للمعنى . . فقد يأتى شخص يستطيع، بمقاصد وطرق للتفكير مضادة، أن يرى فى الطبيعة ذاتها، وفى الظواهر ذاتها، مجرد تنفيذ مستبد غاشم لمطالب القوة»^(٥) . . ولهذا حلم نيتشه بفقہ لغة جديد، وفاعل، يكون باستطاعته اختراق الأقنعة ، واكتشاف من يتقنع وراء المعنى الظاهر ولأية غاية تجرى المحافظة على القناع؛ فقه لغة لا يهتم بما تقوله الكلمات، وإنما يهتم بمن يمتلك سلطة الكلام، وبالقوى التي تتصارع فى اللغة ، ومن خلالها، القوى التي تمتلك سلطة التأويل^(٦) .

وهذه الألسنية الفاعلة تضع أمامها اسئلة جوهرية تطرح لأول مرة، وبصورة جريئة: من يستخدم الكلمة؟ وعلى من يطبقها؟ وماذا ينوى من وراء ذلك؟ وماذا يريد وهو يقول تلك الكلمة؟ ومن إجابته على هذه الأسئلة، وبفضلها ، يتوصل نيتشه إلى أن اللغة لم تكن أبداً أمراً طبعياً وإلى أنها تعرضت إلى التحريف من

مختلف الإرادات ، وإلى أن أصلها نفسه كان بمثابة فعل من أفعال السلطنة ، وهكذا يبين نيتشه ، تطبيقاً لذلك ، فى كتابه «أصل الأخلاق» بعد أن يتساءل حول اشتقاق كلمة «خير» ومعنى هذه الكلمة وتغييره ، كيف أن حق السؤدد ، وليس مصدرأً آخر ، هو الذى يخول لأصحابه إطلاق التسميات «الخير» ، «والشر» ، «الحق» و «الباطل» ، «الخطأ» و«الصواب» ، إلخ . . . لقد قالوا إن «هذا الشيء عبارة عن كذا وكيت» ومن هنا تملكوا ، إذا جاز هذا القول ذلك الفعل أو ذلك الشيء . ثم يبين أن تغيير معنى كلمة ، كأن يتحول «الخير» إلى نقيضه ، يعنى أن شخصاً آخر «أو قوة أخرى أو إرادة أخرى» يستولى عليها ، ويطبقها على شيء آخر لأنه يريد شيئاً آخر مختلفاً؛ فـ «الشرير» فى تسميات العبيد ، أو أخلاقهم ، هو بالضبط «طيب» الأرسطراطيين ، أو أخلاق «السادة»^(٧) . وهكذا فليست لتسميات الأخلاق وقيمها أية علاقة بالتعبير عن حقيقة مثالية أو أية حقيقة معطاة ، وهى ليست وسيلة للمعرفة؛ ولكنها صورة فى خدمة أمر ، أى فى خدمة سلطة .

هذا ، ولا يتوقف نيتشه فى بحثه الفيلولوجى عند دراسة المسار التاريخى لنشوء المفاهيم ، بل هو يحاول أن يكشف عن النوازع الحيوية التى تقف وراء اللغة ، وذلك لأن التأويل هو نفسه عرض لبعض الحالات الفيسيولوجية ولستوى فكرى معين للأحكام الغالبة^(٨) . ومعنى هذا أن الفيلولوجيا تتحول إلى جينالوجيا أو علم النسابة . وهكذا فبعد أن كانت الفيلولوجيا تطرح مشكلة معنى الظاهرة ، تحيىء الجينالوجيا فتطرح ، إتماماً للمهمة ، مشكلة قيمة المعنى من خلال البحث عن أصل الظاهرة .

إن الجينالوجيا تماثل البحث عن الجذور^(٩) . وهذا البحث كان يوجهه السؤال التالى : كيف يمكن أن يظهر أى شيء من ضده؟ أو بالضبط الحقيقة من البطلان؟ أو الرغبة فى الوصول إلى الحقيقة من الرغبة فى الخداع؟ أو الصنيع الكريم من الأنانية؟ أو التبصر النقى الوضاء لدى الحكيم من الجشع والطمع؟

لقد كان نيتشه يدرك قيمة هذا السؤال ، وكان ينظر إلى المنهج الجينالوجى بمثابة متطلب جديد ، أى بمثابة نقد لكل القيم : «إننا - يقول نيتشه - بحاجة لنقد القيم . .

وإن قيمة هذه القيم ينبغي أن تطرح، قبل كل شيء، على بساط البحث، ومن أجل ذلك، فمن الضروري ضرورة ماسة أن تُعرّف الشروط والأوساط التي ولدتها، والتي كانت بمثابة الرحم الذي نمت فيه تلك القيم وتشوهت . . وأن تُعرّف تلك الشروط معرفة لم يعرف لها مثيل حتى الآن، بحيث لا يحتاج المرء إلى تفصيلها والتحرى عنها. لقد كانت قيمة هذه القيم، تعتبر أمراً معطى، واقعياً، بنأى عن كل شك وتساؤل. ولقد أضيفت على «الطيب» حتى الآن، قيمة أرفع من القيمة التي أضيفت على «الخيث» دون أن يتخلل ذلك الإخفاء خردلة من شك أو قيراط من تردد. . . فلماذا لنا أن نتساءل: ماذا لو كان العكس صحيحاً؟ أو ماذا لو كان في الإنسان «الطيب» عارض من عوارض الانحطاط، أو شيء من قبيل الخطرة؟ أو تضليل، أو سم زعاف؟»^(١٠).

إن هذا المتطلب الجديد، في الحقيقة، صاحب نيتشه طوال مراحل حياته. بل إنه نشأ لديه منذ مراحل دراسته الأولى حيث توقف أمام السؤال التالي: «ما هو الأصل الذي ينبغي أن نعزو إليه، في نهاية الأمر، ما لدينا من أفكار حول الخير والشر؟» وبقي لديه هذا المتطلب حتى آخر كتاباته، ولكنه طور مشكلته من السؤال حول أصل الخير والشر إلى هذه المشكلة الأخرى التي جعلها مهمة الجينولوجي: «في أية شروط عمد الإنسان إلى اختراع مقياسي الخير والشر بغية استعمالهما في حياته؟ وما هي قيم هذين المقياسين بحد ذاتهما؟ هل أدياً حتى الآن، إلى عرقلة تطور البشرية أم إلى تعزيز هذا التطور؟ هل هما عارض من عوارض البؤس والفقر الروحي والانحطاط؟ أم أنهما ينمان بالعكس على الغبطة والقوم والعزم على العيش والشجاعة والثقة بالمستقبل والحياة؟»^(١١).

إن هذه الأسئلة يجيب عنه فيقول: «وجدت في نفسي أجوبة متعددة وجازفت بأجوبة متعددة. وشرعت أميز بين العصور والشعوب ومنزلة الأفراد. ثم حددت مواطن الخصوصية في مشكلتي فكانت الأجوبة تتحول إلى أسئلة جديدة وأبحاث جديدة وأوضاع عامة واحتمالات، إلى أن تمكنت، أخيراً من غزو بلد وترابه. . . [بلد أو] عالم بأسره مجهول المعالم، عالم مزدهر وفي عنفوان نموه، هو أشبه ما

يكون ببستان سرى لم يكن أحد يشبهه بوجوده حتى مجرد اشتباهه^(١٢) ، وكان هذا العالم ، أو البلد ، هو الجينيولوجيا .

إن الجينيولوجيا حركة معاكسة لاعتقاد الفلاسفة ، لأنها النزول إلى الأصل في مقابل الصعود إلى المثل . وهذا الأصل هو الذى ينتزع ، فى نظر نيتشه ، الأشياء من العالم الموهوم الذى صنعه الفلاسفة ، ويعيدها إلى مجرى الحياة . فهو إذن يستجيب إلى رغبة شديدة وحازمة لمناقشة ونقد كل ثقافة مثالية . هذا ويتألف المنهج الجينيولوجى من ثلاث خطوات ، وهذه الخطوات الثلاث هى :

الأولى : أن نصنف الأحكام والعادات والقيم التى صدرت فى الماضى عند مختلف الشعوب ، ومن هذا التصنيف يتوفر لدينا تاريخ عام للقيم . ولقد كان من الثابت بالنسبة إلى نيتشه عندما قام بالخطوة الأولى ، أن الذهن التاريخى قد غاب عن الفلاسفة وعن مؤرخى الأخلاق لأنهم يعتقدون بأنه لا تربطنا صلة بالماضى ، ويفكرون فى الماهيات والمثل وكأنها أشياء مستقلة بذاتها . وهم بذلك ، فى الحقيقة يفصلونها عن مصادرها التاريخية . والجينيولوجيا تعلمنا الرجوع إلى هذه المصادر . إن التاريخ الجينيولوجى يكشف لنا فى العودة إلى الوراء ، أو الأصل كل ما حدث من تحول لماهية ما أو ظاهرة ما ، كما يكشف كل الحيل ، وأشكال التنكر التى شوهدت تلك الماهية الأولى . إن وراء كل حقيقة فى نظر الجينيولوجى ، كثرة كاثرة من الأخطاء ، وصنوفاً عديدة من التزوير ، ومهمة الجينيولوجيا هى البحث فى الأخطاء التى تولدت عن العقل خلال الأزمنة الهائلة الماضية ، والمعتقدات الباطلة التى ظلت تتوارث حتى كادت ، فى نهاية الأمر ، أن تعد كامنة فى ماهية النوع الإنسانى^(١٣) . وهكذا فإن التاريخ الجينيولوجى يعلمنا الاستخفاف بالحفاوة التى يحظى بها الأصل . وبالفعل ، لقد كان نيتشه يقول : « فهم الأصل يحد من شأن الأصل »^(١٤) .

الخطوة الثانية : إن المنهج الجينيولوجى يخبرنا ، بعد أن يصعد مباشرة إلى نقطة الانطلاق ، أن وراء الأشياء والقيم « شيئاً آخر » سواها . ونلاحظ هذا ، على وجه الخصوص فى كتاب « أصل الأخلاق » حيث يسعى نيتشه إلى تحليل العواطف

الأخلاقية مُبيناً ما تخفيه في حقيقتها: فالصلاح والطيبة مثلا، ليسا إلا العجز الذي لا يلجأ للاقتصاص، والصبر ليس إلا جبنا ومسألة من الكائن الضعيف^(١٥)، ونلاحظ هذا أيضاً في العديد من مؤلفات نيتشه الأخرى، ففي كتابه «بمعزل عن الخير والشر» ينتهي من تحليله لأصل الفلسفة، وهو «الميل إلى المعرفة»، وإلى النتيجة التالية: «لقد اتضح لي، بالتدريج، أن قوام كل فلسفة عظيمة، ظهرت حتى الآن، هو كونها اعترافاً لمبدعها، ونوعاً من الترجمة الذاتية لحياته.. وعلى ذلك فلست أؤمن بأن أصل الفلسفة هو «ميل طبيعي إلى المعرفة»، بل إن هاهنا، كما في كل شيء آخر، ميلا طبيعياً آخر استخدم المعرفة و(المعرفة الباطلة!) أداة. إن كل من يتأمل الميول الطبيعية الأساسية للإنسان.. سيجد أنها كلها قد مارست الفلسفة في وقت أو آخر»^(١٦). إن نيتشه، كما نلاحظ، يحاول ربط مفهوم ما بإرادة لجعله عرض إرادة لا يمكن تصوره من دونها، فالميل إلى المعرفة هو نزوع للسيطرة؟ وهذا يعنى، وفقاً لنيتشه، إذا نظرنا إلى شيء ما، فإنه يجب البحث عن القوى التي تستحوذ عليه والقوى التي تمتلكه، والتي تعبر عن نفسها فيه، وتتخفى فيه في نفس الوقت.

الخطوة الثالثة: إن الجينيولوجيا لا تكنفى بيان القوى التي تقف وراء الظاهرة، بل هي تخطو خطوة إلى الأمام، فتقوم أصل القوى من زاوية نبليها أو خساستها، إن الجينيولوجيا تعنى الأصل والنشأة، وكذلك الفارق في الأصل، أى مدى نبالة وانحطاط الأصل، وهى، بمعنى آخر ليست البحث عن أصل الظواهر والقيم فقط، ولكنها أيضاً تقدير قيمة الأصل، لأن مهمتها النقدية، وعندما يقول نيتشه فى مقدمة كتاب «إنسانى، إنسانى جداً» بأن: «التفاضل أو التراتب هو قضيتنا الرئيسية»^(١٧)، فإنه كان يقصد أن يبرز أن تحديد كيفية صدور القيم، متوقف على هذا العنصر التراتبى الذى يقسم العالم بمواضيعه ورموزه إلى تعارضات مختلفة: «إلى أدنى» و«أعلى»، «وضيع» و«نبيل»، «شرير»، و«طيب»، «سطح» و«عمق».

هذه هى إذن خطوات المنهج الجينيولوجى، باختصار. ومن حقنا أن نتساءل: ماهى النتائج المترتبة على تطبيقه؟ وماذا عساه يستفيد الجينيولوجى؟

لقد ترتب على تطبيق هذا المنهج على يد نيتشه مجموعة من النتائج الخطيرة؛
فى الدين والأخلاق والفلسفة والعلم والفن . . . إلخ، وهى نتائج يمكن تلخيصها
فىما يلى :

أولاً : فى مجال الأخلاق خرج نيتشه من البحث الذى قام به فى تاريخ
الأخلاق بنتيجة خطيرة، وهى أن منبع الأخلاق والقيم ليس أوامر الله ونواهيه كما
تقول الأديان، كما أنه ليس العقل الإنسانى بما رُكب فيه من جوهر يأمر بالخير ويميز
بينه وبين الشر كما يقول الفلاسفة ، وإنما هى الطبيعة الإنسانية بما فيها من غرائز،
وعلى رأس هذه الغرائز جميعاً غريزة السيطرة وإرادة القوة. وليست هناك أفعال
أخلاقية فى ذاتها، إنما هناك تفسير للأفعال الإنسانية وتقويم لها، حسب طبيعة
الفاعل المقوم، وما تطمح إليه هذه الطبيعة من حب للسيطرة وإرادة القوة، والشئ
الذى يقع عليه التقويم فى ذاته ليس أخلاقياً، وليس مضاداً للأخلاق، وإنما هو على
الحىاد. وترتب على هذه النتيجة الخطيرة على الفور نتيجة أخرى وهى «نسبية» القيم
الأخلاقية وتغيرها بتغير الأشخاص والشعوب، أى يصبح من حق الإنسان وحده أن
يضعه لنفسه القيم التى تساعد على تنمية حياته وتقويتها وإثرائها وهذا عكس
الأخلاق التى سادت إلى الآن وتسود ، والتى هى أخلاق منافية للطبيعة فى نظر
نيتشه ، ومتعارضة مع الواقع، ومضادة للحقيقة الفعلية، فهى مثلاً تدعو إلى الشفقة
على الضعفاء مع أن قانوناً من أهم القوانين الطبيعية، هو قانون الانتخاب الطبيعى،
ويعمل على زوال الكائنات غير الصالحة، وهذه النتيجة يمكن تلخيصها فى عبارة
نيتشه «انهيار القيم».

ثانياً : فى مجال الدين كشف البحث الذى قام به نيتشه فى تاريخ الأديان، أن
فكرة «الألوهية» قد «نشأت» أى أن لها أصلاً تاريخياً. وأنها قد ظهرت لكى تفى
بمقتضيات إنسانية خاصة فى ظروف معينة. وهكذا فالإله، حسب نيتشه، هو أحد
مصنوعات الإنسان التى يرفعها فوق ذاته ليضمن لرأيه الانتصار، أو أنه من صنع
الضعفاء ليتقموا من الأقوياء. وهذه النتيجة يمكن تلخيصها فى عبارة نيتشه «إن الإله
قد مات».

ثالثاً : فى مجال الفلسفة كشف البحث الذى قام به نيتشه فى تاريخ الفلسفة أن هذه الأخيرة وريثة الدين ، بل هى مصاحبة له ، ومؤيدة لنتائجه ؛ فتحت سيطرة الأفكار الدينية تعودّ الفلاسفة على تمثيل عالم آخر «ميتافيزيقى» ، الذى هو صورة من عالم الآخرة الدينى . وكشف أن تاريخ الميتافيزيقا نفسه هو تاريخ أخطاء أساسية اعتبرت حقائق أساسية ، مثل فكرة «الجوهر» ، و«الذات» ، و«العالم الحقيقى» ، و«خلود النفس» ، و«الغائية» إلخ . وهى أخطاء ناتجة فى رأيه عن كراهية الفلاسفة للسيرورة التى تمتنع عن إدراكهم فيبررون فشلهم فى إدراكها بتقسيم الوجود إلى مظهر وحقيقة أو إلى عالم مظاهر وعالم حقائق . وهذه النتيجة يمكن تلخيصها فى عبارة نيتشه «نهاية الميتافيزيقا» .

رابعاً : فى مجال المعرفة والعلم والفن كشف البحث الذى قام به نيتشه فى تاريخ المعرفة الإنسانية أن المبدأ الذى تقوم عليه المعرفة ليس هو الحقيقة بل هو المصلحة ، وأن الإنسانية تفضل الوهم على الحقيقة حتى تستطيع احتمال الوجود والاستمرار فيه . وبناء عليه يتحول المثقف من عارف يحمل رأسمال معرفى إلى داعية يعيد صوغ الأشياء صوغاً لاموضوعياً على مقاس الحاجة التى تصبح مؤسس فعله المعرفى وخلفيته التى تصنعه . وهذه النتيجة يمكن تلخيصها فى عبارة نيتشه «بطلان الحقيقة» .

هذه هى إذن أهم النتائج التى ترتبت على تطبيق المنهج الجينىالوجى فى مجال الثقافة الإنسانية . وهى ، بلا شك نتائج خطيرة فهى تقلب كل من آمن به الإنسان ، وما اعتبره مقدساً لا يطاله الشك ، رأساً على عقب . إنها نتائج تعنى ، فى نهاية المطاف صرف كل علاقة ممكنة مع الإله والأديان جميعها ، لكى ينشأ بدلاً منها معتقد جديد .

إن هذا المنهج الذى أسسه نيتشه ، ورغم خطورته الواضحة ، قد استمر من بعد موته . فقد أصبح نوعاً من العملة النقدية التى قام بتوزيعها وترويجها مجموعة من الفلاسفة الغربيين البارزين الذين أعطوه تسميات مختلفة فهو «الاستذكار» عند

هايدغر، و«التفكيك» عند ديريدا، و«الحفريات» عند فوكو. وقد كانت محاولات هؤلاء الفلاسفة تسعى، مثل محاولة نيتشه، للوقوف عند الأصول لخلخلتها وتقويضها هذا، وأما المفكرون العرب فقد انقسموا في مواقفهم من المنهج الجينيولوجي. ونستطيع أن نجزم بأن غالبيتهم قد عارضوه. أما الذين أيدوه فإنهم لم يعلنوا عن موقفهم بصراحة، وإنما عبروا عنهم بتمويه كبير أثناء عرضهم لفلسفة نيتشه في أعمالهم.

وينبغي القول أن الدكتور فؤاد زكريا هو أحد «الرافضين الكبار» للمنهج الجينيولوجي. ونظراً لقصر هذه الدراسة، فإننا سنكتفى بعرض موقفه دون غيره، لتتعرف على أسباب هذا الرفض. والذي يمكن قوله عن موقف الدكتور فؤاد زكريا أنه لا يرفض المنهج الجينيولوجي فقط، وإنما يرفض كل فلسفة نيتشه ويضعها موضع النقد في المسائل التي يعالجها.

يقول الدكتور فؤاد زكريا في نقده للمنهج الجينيولوجي: «إن نيتشه يتحدث عن أصل المعرفة، وأصل الحقيقة، فيراها في النفع الحيوي، ويردهما إلى عوامل خارجة تماماً عن نطاق السعي الخالص إلى المعرفة والحقيقة. وفي وسعنا أن نوجه إلى هذا الرأي النقد [التالي]: فمن أين، وعن طريق أية تجربة، عرف أن "أصل" المعرفة هو النفع الحيوي، إن هذا الأصل باعترافه هو ذاته تاريخي، أعني أن المعرفة البشرية كانت في الأزمان السحيقة، بل في عهود التطور الأولى، على النحو الذي يقول به، ثم صارت إلى ما عليه هي الآن. ومثل هذا الرأي لن يجد ما يدعمه إلا إذا استند إلى أساس علمي متين، وهو ما لم يحاول نيتشه أن يقوم به، ولم يكن الاتجاه الذي سار فيه تفكيره يمكنه من القيام به، فعلى أي أساس إذن يقدم نيتشه مثل هذا الرفض؟»^(١٨). ويجيب بأن فكرته تنطوي بلا شك على نفس الخطأ المنهجي: «فهي تفترض القدرة على تجاوز التجربة الإنسانية في صورتها الحالية، لتعود إلى أصولها الأولى. فإذا كانت الصورة الحالية للمعرفة قد تغلغلت فينا منذ عهود كبيرة، كما يعترف هو ذاته، فلا سبيل إلى أي تجربة آدمية إلى الخروج عنها أو الاهتداء إلى أصلها. ذلك لأن نيتشه، بوصفه كائناً تسرى عليه نفس الحدود التي يتحدد بها سائر

البشر، لابد أن يكون هو الآخر غارقاً في تلك الصورة الحالية للمعرفة البشرية، عاجزاً عن تجاوزها وعن كشف أصلها، مادامت تفرض نفسها على الجميع، بحيث تبدو لهم صورة أصلية راسخة في نفوسهم»^(١٩).

إنه من الواضح، من خلال هذا النص أن الدكتور فؤاد زكريا يستعمل في نقده للمنهج الجينيولوجي عند نيتشه نفس الحججة التي استعملها هذا الأخير في نقد منهج الفلاسفة الإنجليز في دراسة أصل مفهوم الخير والأفعال غير الأتانية، وهي الحججة القائمة على "النسيان". ولذلك فإن نقد الدكتور فؤاد زكريا، في الحقيقة لا ينطبق على نيتشه وإنما ينطبق على الفلاسفة الإنجليز. فهؤلاء هم الذين قالوا أن منفعة الفعل غير الأتاني يفترض أنها مصدر الاستحسان الممنوح لهذا الفعل، ويفترض أن هذا المصدر قد نسى. أما نيتشه، فإنه يرى أن العكس هو الصحيح، ويسخر من مفهوم "النسيان" ويرى أنه غير ممكن ولا يمكن الدفاع عنه تاريخياً: «إلا إذا افترضنا - كما يقول - أن المنفعة المتأتية عن مثل تلك الأفعال قد كفت عن الوجود. وهذا غير صحيح والأصل أن تلك المنفعة هي التجربة اليومية في جميع الأزمان. ومن هنا فهي عوضاً أن تزول أن تنسى فإنها تبرز أكثر فأكثر»^(٢٠).

هذا، وأما النقد الثاني الذي يوجهه الدكتور فؤاد زكريا إلى المنهج الجينيولوجي، والذي مفاده أن فكرة نيتشه عن أصل الظواهر لا تستند على أساس، فإنه في الحقيقة نقد يستبعد مجهوداً علمياً كبيراً قام به نيتشه من أجل إثبات آرائه؛ فالأساس الذي قامت عليه أفكار نيتشه هو فقه اللغة، أي تراثاً كاملاً من النصوص. ومن هذه الناحية فإن منهج نيتشه يدل في الحقيقة على مشروع تنقيحي كبير لا يمكن نكرانه. وربما كان هذا المجهود التنقيحي والدراسة الطويلة المجهدة، والإنضباط الكبير، وغيرهما من المتطلبات التي يتطلبها المنهج الجينيولوجي، من الأسباب الكبرى التي جعلت المفكرين العرب ينصرفون عنه.

هذا، وعلى الرغم من هذه الاعتراضات التي يعترضها الدكتور فؤاد زكريا على المنهج الجينيولوجي، فإنه يرى مع ذلك أن هذا المنهج: «من الممكن استخدامه بنجاح

فى كشف «طبيعة» الظاهرة^(٢١)، والسبب : «أن من أول أصول المنهج العلمى رد الظواهر إلى أصلها التاريخى ومعرفة طبيعتها الحاضرة من خلال ماضيها»^(٢٢). ثم يستدرك، فىقول: «ومن ذلك فلا ينبغى أن يستغل هذا فى الحط من قدر الظاهرة فى صورتها الحالية ما دامت الصورة الأصلية قد اندثرت ونسيت تماماً»^(٢٣). وهكذا فإن الدكتور فؤاد زكريا يبدو أنه يقع فى تناقض فى نفس الفقرة؛ فهو من جهة يقر بإمكانية استخدام المنهج الجينيالوجى بنجاح فى التعرف على أصل الظاهرة، ولكنه من جهة أخرى، يرفض أن يستخدم فى تقدير قيمتها الحالية والحط منها ما دام لا يمكن الاهتمام إلى أصلها^(٢٤). إنه يعترف من جهة بإمكانية معرفة أصل الظاهرة، وينكر من جهة أخرى استحالة هذه الإمكانية!. وهو يعيب من جهة على المنهج الجينيالوجى افتقاره إلى أساس علمى يقوم عليه لأنه تاريخى، ومن جهة أخرى يعترف أن البحث التاريخى أو البحث عن الأصل هو من أول أصول المنهج العلمى!.

وهكذا، يتضح لنا أن موقف الدكتور فؤاد زكريا من المنهج الجينيالوجى هو موقف حذر: إنه يثبت وينفى، ويقر وينكر، يغفل ويعمم. باختصار، لقد كان يريد أن يقول، دون أن يجتهد كثيراً فى البحث عن أسباب مقنعة: إننا لسنا فى حاجة إلى المنهج الجينيالوجى، رغم فائدته.

إن هذا الموقف الحذر من المنهج الجينيالوجى، لا نجده عند الرافضين له فحسب، بل نلاحظه أيضاً عند المفكرين العرب المرحبين به الذين لم يكن حذرهم ينبع من خطأ الفروض التى يفترضها المنهج الجينيالوجى، ولكن من الخوف من المحيط الذى كانوا يعيشون فى وسطه لئلا يتهمون بالزندقة. وقد كانت هذه هى حال فرح أنطون وسلامة موسى وعبدالرحمن بدوى. وستقتصر هنا أيضاً، على مثال واحد لبيان موقف المرحبين بالمنهج الجينيالوجى، هو موقف عبدالرحمن بدوى.

إنه مما لا شك فيه أن النيثشوية قد لاقت ترحيباً كبيراً لدى عبدالرحمن بدوى، فقد دعا هذا الأخير إلى نيثشه بحماسة منقطعة النظير، وهو يعتبر عمله ماثلاً لمشروع

نيتشه الفكرى الكبير فى «تبديل القيم» ؛ فيقول: « ليس من شك فى أن الشعور بهذه الحاجة [أى الثورة الروحية على القيم القديمة] قائم فى نفوس أبنائه [أى أبناء الوطن العربى] . . فهم لم يعودوا يمنحون القيم القديمة السائدة من الثقة و الإيمان ما كانت تمنح من قبل . . وأصبحوا ينكرون اليوم ما كان أسلافهم يحتفلون له أشد الاحتفال ، ويتبرمون بأشياء كانت من قبل موضع التقديس . وكانت من نتيجة هذا كله أن أصبحت الطبقة الممتازة من أبناء هذا الجيل . . على حال من الشك قد يبلغ عند البعض درجة اليأس والقنوط . . وهى من أجل هذا كله فى حاجة إلى اكتشاف نظرة فى الوجود جديدة . . وإلى التمهيد لإيجاد هذه النظرة الجديدة قصدنا حين فكرنا فى هذا المشروع الضخم ، مشروع تقديم «خلاصة الفكر الأوروبى» إلى أبناء هذا الجيل . . فنحن نريد عن طريقه أن نعرض عليهم العقل الأوروبى وهو يناضل ويجاهد فى سبيل إيجاد نظرة فى الحياة وفى الوجود ، من شأنها أن تخلق طابعاً ممتازاً من الإنسانية ، وصورة جليلة سامية من صور الحضارة»^(٢٥) .

من الواضح ، إذن ، أن مشروع النهضة لبدوى يقوم على مشروع نيتشه فى تبدل القيم القديمة بقيم جديدة ، ولكن بدوى لا يكشف عن المنهج الذى يجب اتباعه فى سبيل تحقيق مشروعه ، على الرغم من أنه يعرف أن هذا المنهج ليس سوى المنهج الجينىالوجى ، وإنما يكتفى فقط بالإشارة إلى أهمية النتائج التى حققها على يد نيتشه وتبرير بعض أخطاء فروضه ، فهو يقول مثلاً: معلقاً على العلماء الفيلولوجيين الذين أتوا بعد نيتشه ، مثل بريال الفرنسى ، الذين أثبتوا خطأ تحليلاته الفيلولوجية التى تربط بين الكلمات والذين يطلقونها: « إن نيتشه الفضل ، على الرغم من هذا كله ، فى أنه وجه أنظار الفيلولوجيين إلى البحث فى هذه الناحية ، واستطاع بعضهم أن يظفر ببضعة اكتشافات مهمة تتصل باشتقاق الكلمات التى تدل على معان أخلاقية»^(٢٦) . ويصف النتائج التى حققها بحثه فى أصل ومصادر الأخلاق بأنها على أقصى درجة من الأهمية^(٢٧) ، بل أكبر عمل وأخطره فى الحياة الإنسانية^(٢٨) . ورغم كل هذا المديح والإطراء للمنهج الجينىالوجى ، وهو على كل حال صادق فى صميمه ، إلا أننا لا نعثر عند بدوى على دعوة صريحة لاستخدامه فى تراثنا .

وهكذا، فإننا نصل إلى المفارقة العجيبة التالية: الراضون للمنهج الجينيالوجي يقرون بفائدته ولكنهم يرون أنهم فى غنى عنه. والمحبون به يؤكدون كذلك على فائدته ولا يجروون على الدعوة لاستخدامه. فلماذا هذا الموقف المزدوج المحير من هذا المنهج: أى نعم ولا فى نفس الوقت؟

يدو لنا أن هذا الموقف المتردد بين الرفض والقبول يعود إلى جملة من الأسباب لعل أهمها أن المفكرين العرب وجدوا أنفسهم أمام منهج يحتوى من جهة، على الكثير من المبادئ التى تبصر الناس بحقهم فى التحرر من عبودية التقاليد والعادات، وتجتث ما غرست قرون العبودية فى الوطن العربى - الإسلامى من استكانة حولت إيمان أبنائه إلى استسلام. ولكنه، من جهة أخرى يفضى وفى الغالب، إلى ما يزعزع الأديان وينال من الأخلاق. وهو ما لا يتفق مع الهيئة الاجتماعية التى يتسمى إليها أغلب المفكرين، سواء أكانوا مسلمين أو مسيحيين ابتداء من فرح أنطوان وصولاً إلى يسرى إبراهيم، ومروراً بسلامة موسى وفليكس فارس وعبدالرحمن بدوى وهشام شرابى وغيرهم. ونحن نجد باقية كاملة من الأقوال تؤكد هذا الرأى؛ فهذا فرح أنطوان يقول عن فلسفة نيتشه: «إنها تحتوى على الكثير من المبادئ التى لا نرى الآن موضعاً لها فى الشرق ولا يمكن العمل بها فى [هذه] الهيئة الاجتماعية. . . ولما كنا شرعنا فى العودة إلى تلخيص فلسفة هذا الفيلسوف فسنستمر فى الخطة التى اتبعناها من قبل وهى أن نلخص منها ما لا يمس الأديان والعادات الحاضرة، لأن غرضنا استخراج لباب القوة والحماسة من كتبه والإعراض عما بقى»^(٢٩). وهذا يسرى إبراهيم يقول: «لابد أن نؤكد هنا أنه من السذاجة أن يتصور أحد أن دراسة فلسفة نيتشه والوعى بها يمكن أن يزعزع إيماننا بالله أو يبدد اعتقادنا فى القيم النبيلة التى بشرت بها الأديان السماوية. وإذا كان هناك بعض الدراسات التى انتقل أصحابها مباشرة من دراسة نيتشه إلى الإيمان بما يقول، فليس هناك ضرورة فلسفية أو منطقية على الإطلاق تفرض على كل باحث فى فلسفة نيتشه أن ينتهى إلى هذه النتيجة»^(٣٠).

هذا، ويبدو لنا أن السبب الآخر، في تردد المفكرين العرب في اعتماد المنهج الجينيولوجي في أبحاثهم هو أن هذا المنهج يتطلب، كما قلنا في السابق، جهداً تنقيحياً كبيراً، ودراسة طويلة مجهددة، وهو أمر بعيد عن متناول أغلبية الباحثين.

وفي الأخير، يبدو لنا أن التردد في استعمال المنهج الجينيولوجي من طرف المفكرين العرب، يدل بوضوح على أن الغرض من الاهتمام بنيتشه لا علاقة فعلية له بتطبيق مصادرات النيتشوية تطبيقاً صارماً، بل الغرض من ذلك يرجع إلى اعتبارات ذرائعية، فإن نيتشه غالباً ما كان يُردُّ عندهم إلى موقع المعلق، أو الناطق الرسمي باسمهم، أو يتخذ كذريعة تمكن الواحد منهم من عرض إيمانه الفلسفي.

مراجع البحث

1- Nietzsche (F) : Le gai Savoir, Trad . P. Klossowski , Gallimard, 1989 ,
fragment 377.

٢ - جيل دولوز : نيتشه والفلسفة، ترجمة أسامة الحاج ، المؤسسة الجامعية
للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت، ١٩٩٣ ، ص ص ٧-٨ .

٣ - عبدالسلام بنعبدالعالي : أسس الفكر الفلسفي المعاصر (مجازة الميتافيزيقا) ،
دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ، ط ٢ ، ٢٠٠٠ ، ص ٣٢ .

٤ - ميشيل فوكو : جينالوجيا المعرفة ، ترجمة أحمد السطاتي وعبدالسلام
بنعبدالعالي ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ، ١٩٨٨ ، ص ٣٣ .

5 - Nietzsche : Par - delà le bien et le mal , Trad . Geneviève Banquis,
Union Générale d'Éditions , 1988, fragment 22.

6 - Rey (J-M) : L'Enjeu des signes "lecture de Nietzsche" , les éditions du
Seuil, 1971, P.175.

٧ - فريدريك نيتشه : أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة حسن قيسى، المؤسسة
الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨١ ، البحث الأول،
الفقرة ٢ .

8 - Nietzsche : Les Oeuvres Philosophiques complètes, tome XII , Trad,
Hervier, n.r.f, Gallimard, 1979, P.160.

9 - Choulet (p) : Nietzsche in "La philosophie allemande de Kant à
Heidegger" , P.U.F, P.239.

١٠- نيتشه : أصل الأخلاق، المقدمة ، فقرة ٦ .

١١- المصدر نفسه، المقدمة ، فقرة ٣ .

١٢- المصدر نفسه ، في الفقرة نفسها .

- 13- Nietzsche : Le gai Savoir , fragment 110.
14- Nietzsche : Par - delà le bien et le mal, fragment 6.
17- Nietzsche : Humain, trop humain, I, trad. R. Rovini, col. Folio, Gallimard, Préface, Fragment 7.

- ١٨- فؤاد زكريا : نيتشه ، دار المعارف ، ط ٢ ، ص ٨٠ .
١٩- المرجع نفسه ، فى الصفحة نفسها .
٢٠- نيتشه : أصل الأخلاق وفصلها ، البحث الأول ، فقرة ٣ .
٢١- فؤاد زكريا : نيتشه ، مرجع سابق ، ص ٨١ .
٢٢- المرجع نفسه فى الصفحة نفسها .
٢٣- المرجع نفسه ، ص ٨٠ .
٢٤- المرجع نفسه فى الصفحة نفسها .
٢٥- عبدالرحمن بدوى : نيتشه ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط ٥ ، ١٩٧٥ ،
تصدير المؤلف ، ط-ل .
٢٦- المرجع نفسه ، ص ١٧٥ .
٢٧- المرجع نفسه ، ص ١٩٦ .
٢٨- المرجع نفسه ، ص ٢٠١ .
٢٩- فرح أنطوان ، الجامعة ، ١٩٠٨ ، ص ص ٤٢-٤٣ .
٣٠- يسرى إبراهيم : نيتشه عدو المسيح ، دار سيناء ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، المقدمة ،
ص ٨ .